مصدرية القرآن للثقافة ومحوريته لكل أنواع النشاط

الأستاذة نورة سعادنة

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب
وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونيا رمضان 1439 هـ / 2018م

مصدرية القرآن للثقافة
ومحوريته لكل أنواع النشاط

الأستاذة نورة سعادنة (*)

يخاطب القرآن الكريم الإنسان ويمنحه الثقة في نفسه؛ ويرقى به لأقصى درجات العطاء؛ حيث يصبح حارساً من حراس الأمة لبقاء الأمة نفسها بكامل خَيْرِيَّتِهَا، وذلك بالذود عن مبادئها بين أفراد مجتمعها؛ ويصبح كل المجتمع يؤدي مهمة الحسبة والرعاية لبقاء الأمة، وهذا ما وصفه القرآن الكريم بأبلغ الأوصاف؛ وهذه أعلى الدرجات التي يعجز عن بلوغها أرقى فنون تطوير الذات والتنمية البشرية.

المصدرية القرآنية:

يهيم الباحث الجادّ بين مئات المصادر والمراجع ليمنح أفكارَه مصدرية أو مرجعية موثوق بها؛ وهو في ذلك يتحرى أكثر المؤلفين دقة وأجودهم أسلوباً وأبدعهم عطاءً، والأهم من ذلك كله أصدقهم علماً وأنصفهم قولاً وأنصعهم هدفاً وغاية، وهذا قصد الاستشهاد بما يرفع من قدر بحثه علمياً؛

(*) باحثة أكاديمية.. جامعة العقيد الحاج لخضر، كلية العلوم الإسلامية، باتنة (الجزائر).

ويمنحه المتانة والصلابة الفكرية الكافية ليؤسس لرؤى جديدة، أو ليبث روح الإحياء في أفكار بناءة قد طواها غبار القرون والنسيان بعيداً عنا.

القرآن الكريم(1) هو الكتاب المنزل عن طريق الوحي على خاتم الأنبياء ﷺ، وهو كلام الله عز وجل المنقول إلينا بالتواتر، من هنا يبدأ الحديث عن مصدر آخر يختلف عن كل المصادر المعرفية المعهودة بين البشر، بما في ذلك الكتب السماوية السابقة؛ والتي تم تحريفها وإعادة صياغتها وفق الأنماط البشرية في التأليف.

وهنا أيضاً يبدأ الحديث عن خصائص مصدرية لا يمكن أن ترقى إلى ميزاتها ودرجاتها أياً من المصادر والمراجع المعهودة، سواء كان ذلك على الصعيد المعرفي العلمي؛ أو الصعيد الفكري والثقافي الاجتماعي.

- خصائص المصدرية القرآنية:

1- اليقينية:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:2)، والرَّيْبُ في اللغة معناه: «الشَّكُّ والظِّنَّةُ والتُّهمة»(2)، فالقرآن هو كتاب الهداية الحق الخالي من أي ريب أو ظنّ.

لقد ابتليت البشرية بموجة عاصفة من الشكّ أيام السُّفَسْطَائِيَّة في العصر اليوناني، حين فُقِدَت الثّقة في أهم مصادر المعرفة البشرية وهما: العقل

(1) التعريف الشهير للقرآن الكريم هو: «الكلام المعجز المنزل على النبي، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته»، انظر محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط1 (بيروت: دار الفكر، 1996م) 15/1.

(2) محمد بن مكرم الإفريقي، ابن منظور، لسان العرب، ط1 (بيروت: دار صادر، د.ت) 441/1-442.

والحواس. ولم يعد للمنطق أي قيمة؛ وحلت بدلاً منه التركيبات الأغلوطية والمفارقات الشهيرة(1)، ووقتئذ ادّعى الشُّكّاك أن لا وجود للحقيقة مطلقاً، وإن وجدت فلا سبيل إليها.

وقد اشتهر في التاريخ ثلاث فرق سفسطائية، هي:

- اللا أدرية، وتسمى البيرونية أيضاً نسبة إلى بيرون(2) صاحب المقولة الشهيرة «لست أدري، ولست أدري أنني لا أدري»(3).

- العنادية، وقد سُمُّوا بالعنادية لشدة عنادهم ونفيهم لكل الحقائق والموجودات، فهم يرون أن لا موجود أصلاً(4) في هذا الكون، وكل ما يُرى ويحس به ليس إلا وهماً. ويتزعم هذا المذهب جورجياس(5).

- العِنْدِية، وهم أتباع بروتاغوراس(6) القائل: إن حقائق الأشياء

(1) من المفارقات الشهيرة مفارقة العداء والسلحفاة: فرضًا أن سلحفاة تتقدم عداء عدة خطوات، المسافة الصغيرة بينهما في الحقيقة تتكون من عدد لا نهائي من النقاط؛ فكيف يمكن للعداء قطع عدد لا نهائي من النقاط؟ من الناحية النظرية –عندهم– يستحيل على العداء تجاوز السلحفاة وهذا مخالف للواقع؛ إذن لا حقيقة.

(2) بيرون: زعيم الشكاك اليوناني الشهير (365ق.م–275ق.م) صاحب مذهب اللاأدرية المنكر للعلم واليقين، لم يدون آراءه وإنما نقلها عنه تلاميذه، كان له قدر كبير بين مواطنيه إذ اعتبروه الكاهن الأعظم وأقاموا له تمثالاً بعد موته، وليس لمذهبه أي أسس فكرية عميقة، وإنما لجأ إلى هذا الغلو في الشكّ هروبًا من أدنى مسؤولية قد تلقى على عاتقه في هذه الحياة، وقد تَذرّع بالشكّ المطلق لما رأى في ذلك من نيل للسعادة الكبيرة في الحياة والتخلص من كل الهموم والويلات، واكتفى بتدعيم موقفه بثلاث أسئلة يرى أنه على كل عاقل أن يطرحها على نفسه، وهي: ما هي هذه الأشياء التي نراها من حولنا وكيف تكونت؟ ما علاقتنا بهذه الأشياء؟ كيف يجب أن يكون موقفنا إزاءها؟

(3) أحمد أمين، زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، ط2 (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1935م) ص309.

(4) انظر الإيجي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، كتاب المواقف بشرح الجرجاني، الشريف علي بن محمد، ط1 (القاهرة: مطبعة السعادة، 1907م) 187/1.

(5) جورجياس: اختلف في تاريخ ميلاده ووفاته، قدم أثينا في427ق.م، وتوفي عن عمر يقارب المائة أو يتجاوزها بقليل، له من البلاغة والفصاحة ما يجلب العقول إليه، يتلخص مذهبه في ثلاثة أقوال له: لاشيء موجود أصلاً في هذه الحياة؛ وحتى إن وجد أي شيء فلا يمكن معرفته؛ وإن عرف فلا يمكن إبلاغ ذلك للغير أبدًا (انظر يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص61).

(6) بروتاغوراس: سوفسطائي يوناني(450ق.م–440ق.م)، اشتهر بتعليم فن النجاح في الحياة العملية والسياسية في مدن كثيرة مقابل الأجر، من آرائه أنه يمكن إطلاق عبارات متناقضة على أي موضوع، وعبارته الشكية الشهيرة: (الإنسان مقياس كل شيء)، تعني أن الحقيقة ليست حقيقة إلا عند صاحبها وما يحيطه من ملابسات تختلف بالطبع عن غيره، فلكل واحد حقيقته ومقياسه الخاص به في رؤية الأمور من حوله (انظر الموسوعة الفلسفية المختصرة،120–123)

تابعة لما عند كل فرد من اعتقاد[1].

ورغم تصدي الفلاسفة في ذلك العصر بالرد عليهم وتأسيس أرسطو[2] لعلم المنطق الذي يحفظ قواعد التفكير، وكذلك ردود علمائنا الأوائل عليهم وخاصة المتكلمين منهم، إلا أن جذور الشك ما تزال تتغلغل في الفلسفة الغربية الحديثة، وخاصة بعد ظهور بعض النتائج الفيزيائية لنظرية الكوانتية[3]، والتي أعادت فتح الباب على مصراعيه للشك؛ لِتَلِج معها الداروينية والتطورية الحديثة إلى ساحة الفكر المعاصر بحلة ظاهرها البحث العلمي وباطنها النفي المطلق لبلوغ أي حقيقة واضحة عن الإنسان والطبيعة ونشأتهما ومصيرهما، فتم تسليم الولاء للفلسفة الوجودية، التي ولدت بلا أبوين وراحت تبحث عن أسرار الوجود أجمع وعن معايير ثابتة لا تتزعزع بالشك... إنه البحث عن اليقين مجدداً.

---

(1) انظر الجرجاني، التعريفات، ص 164، مادة العندية.

(2) ينسب علم المنطق إلى اليوناني أرسطو طاليس، ومع ذلك نتحفظ في ما يخص الأبحاث الجديدة حول هذه المسألة، والتي تشير إلى أن الفلسفة اليونانية بأكملها كانت مأخوذة من التعاليم المصرية القديمة في المدارس الكهنوتية السرية التي تتلمذ فيها أرسطو وبقية فلاسفة اليونان، ولمزيد من الاطلاع على بعض أصحاب هذا الرأي يرجى النظر في: جورج جيمس، التراث المسروق، الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة، ترجمة شوقي جلال، (الإسكندرية: مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، 1996م)؛ حسن طالب، أصل الفلسفة: حول نشأة الفلسفة في مصر القديمة وتهافت نظرية المعجزة اليونانية، ط.1 (مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2003م).

(3) الكوانتية: وتسمى الكمومية، نظرية نشأت عن مبدأ الكُوانْتوم أو الكم (وهو أصغر جسيم طاقوي) للعالم الألماني ماكس بلانك، وهي بخلاف نظرية النسبية العامة لألبرت أينشتاين التي تتلاءم مع الأبعاد السحيقة في الكون؛ فالكوانتية مجالها الأبعاد الدقيقة للمكونات الصغيرة من الذرة فما دونها، ولها من المفارقات الغريبة ما يدخل الشك في نفوس الباحثين، كوجود جسيم طاقوي واحد في مكانين مختلفين في لحظة واحدة، ... من نتائج النظرية الوخيمة على الصعيد الفكري (والفلسفي) مبدأ العشوائية وعدم اليقين في أحداث الكون، وأنها تنفي الوجود المادي لمكونات المادة وأن كل ما في الكون يسبح في موجات متداخلة، وكل ما نراه هو من صنع حواسنا فقط والتي لا تلتقط إلا اليسير مما حولها. (انظر تاريخ موجز للزمان (انظر من الانفجار الأعظم حتى الثقوب السوداء) ستيفن هوكنغ، ترجمة د.مصطفى إبراهيم فهمي، د.ط. (الهيئة المصرية العامة للكتاب: د.ت.)ص57-77؛ جيمس جينز، الفيزياء والفلسفة، ترجمة جعفر رجب،د.ط (القاهرة: دار المعارف، د.ت) 173-290).. المهم من ناحية أخرى أن هذه النظرية كشفت وأكدت عجز العقل البشري عن الفهم الشامل للعوالم الأخرى المحيطة بنا، سواء المتناهية في الكبر أو المتناهية في الصغر، كما كانت سببًا في التسليم أن لكل عالم قوانينه الخاصة به، والتي تبدو لنا أحيانًا غريبة لشدة ما لم نألفها في عالمنا العادي الذي نحيا فيه، فسبحان من (عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم).

المصدرية القرآنية حفظت أول حقوق العقل البشري حتى لا يصادر نفسه بنفسه، منحته اليقينية المطلقة؛ لأن هذا الكتاب من رب العباد العليم الحكيم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: 42)، ويقول عز من قائل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (السجدة:2).

إن أهم ركيزة للبحث في المجال العلمي والإنساني هو الاستناد إلى مصدر يقين لا شك فيه، وهذا باب مهم من أبواب مباحث نظرية المعرفة منذ القديم، ولو أخذ الوحي كمصدر من مصادر المعرفة مع مراعاة خصائصه المصدرية الأخرى لكانت الأبحاث تسير في وجهة أكثر صحة ويقينية.

2- الشمولية:

وهي صفة لازمة لابد منها؛ كيف لا وهو من الخلاق العليم، إذ لا يمكن أن يكون الكتاب المسطور إلا شاملاً ومماثلاً للكون (الكتاب) المنظور ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:38).

في عصرنا الحديث تم تصنيف معاجم موضوعية لآيات القرآن الكريم؛ حيث جمعت الآيات ورتبت بحسب مواضيعها في أبواب وفصول، والمتصفح لها يعجب من تنوع وسعة تلك المواضيع في القرآن الكريم، ولنذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر:

العقيدة وأركان الدين، وتنظيم العلاقات المالية، والعلاقات السياسية والعامة، والأحكام القضائية، والقصص، والإنسان والعلاقات الاجتماعية

والأخلاقية، والديانات، والدعوة إلى الله، والعلوم والفنون (آيات الكونيات)... وغيرها من الأبواب التي تحوي فصولاً وتفريعات لا يتسع المقام لذكرها هنا[1].

وبعد ظهور التفسير الموضوعي كمنهج قائم بذاته من مناهج التفسير، أصبح من اليسير دراسة الكثير من المستجدات الموضوعية من خلال القرآن الكريم وخاصة في العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ وذلك بتتبع كل المفردات المتعلقة بالموضوع عبر كامل آيات القرآن، ومن ثم تجميعها وتفسيرها بحسب سياقها الذي وردت فيه، واستخلاص مفهوم قرآني حول ذلك قدر الإمكان.. ناهيك عن ما صنف في الإعجاز العلمي أو - كما يفضل بعضهم تسميته - التفسير العلمي لآيات الكونيات، مع استحداث قواعد خاصة بذلك حتى لا تُحَمّل الآيات ما لا تحتمل أو يقيد معناها باكتشافات قد يظهر بطلانها مع تطور التقنيات والمعارف البشرية.

إن جهود أسلمة المعرفة باب واسع، ما كان ليبصر النور لولا الشمولية المرنة لمصدرية القرآن لكافة أنواع النشاط الفكري البشري، بدءاً من أبسط أبجديات الحضارة إلى أقصى جوانب التنمية البشرية وتطوير الذات ومن ثم تشييد المجتمعات.

إن أهم ما في شمولية القرآن من ميزات هو إحاطته بالجوانب الروحية والإيمانية والأخلاقية والتشريعية والفقهية (سواء التعبدية أو المعاملاتية) التي تكفل للإنسان سيراً حضارياً صحيحاً متكاملاً ومتزناً، خال من أمراض الفكر والروح والنفس، وتفتح - مع ذلك- آفاقاً جديدة لكل عصر

---

(1) انظر: مروان العطية، المعجم المفهرس لمواضيع آيات القرآن الكريم، الذي بسطه وهذّبه وكتب آيات المواضيع كاملة الأستاذ نوح أحمد محمد، وسماه: تجميع آيات الموضوع لآيات القرآن الكريم؛ وانظر: محمد فارس بركات، الجامع لمواضيع القرآن الكريم؛ صبحي عبد الرؤوف عصر، المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم...

فتستوعب كل المستجدات، وهذه صفة انفرد بها كتاب الله تعالى، الذي لا تنقضي عجائبه في مصدريته الرفيعة.

3- الثوابت والمتغيرات:

على العكس من الفلسفة التي تنطلق من تساؤلات وافتراضات وتدع لصاحبها مهمة البحث عن الحقائق بصورة عشوائية مما أدى إلى نتائج إلحادية وخيمة على العقل البشري، فإن الله سبحانه وتعالى العليم بحال عباده، وطبيعتهم التي جبلهم عليها، وعجز عقولهم عن الوصول إلى الحقائق الغيبية العظمى؛ بيَّن لهم في كتابه الكريم المبدأ والمعاد وما بينهما، فالمبدأ من الله: فهو الخالق وما سواه مخلوق، والمعاد إليه فثواب أو عقاب ولم يخلق الكون عبثاً، والطريق بين المبدأ والمعاد هو التزام شرعه ومنهجه.

هذه هي الثوابت القرآنية التي كفتنا مغبة الفلسفات الوجودية والتطورية، التي تاهت في منشأ الإنسان وفي مصيره بل وفي حقيقة الوجود بأكمله.

تمثل الثوابت القرآنية الحقائق الكبرى والنتائج السليمة التي ينبغي أن تصل إليها العقول البشرية، فالقرآن يمثل المصدر اليقين الأوحد لها، ولم يدع مجالاً للتيه فيها أو استبدالها بغيرها من النظريات أو الوهميات.

أما المتغيرات القرآنية والتي فتَح كتاب الله فيها المجال للعقل البشري ليخوض فيها بقدر ما يمكنه؛ فهي المقدمات التي توصله إلى تلك الثوابت نفسها (أي النتائج القرآنية العظمى).. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: 17- 22).

فعلى خلاف الفلسفة، التي تضع لنفسها المقدمات ثم تبحث عن النتائج؛ فالقرآن الكريم منحنا النتائج الكبرى (الثوابت) وترك لنا مجال البحث بحرية عن المقدمات الموصلة لها (المتغيرات) سواء في عالم الآفاق أو عالم الأنفس؛ لأنه في الأخير حتى من لا علم له بالثوابت القرآنية من غير المسلمين وبحثَ بموضوعية وأخذ بمقدمات الكتاب (الكون) المنظور فستوصله أبحاثه حتماً إلى نتائج الكتاب (القرآن) المسطور(1)، فكلاهما من رب العالمين...

إنّ تميُّز المصدرية القرآنية بهذه الخصائص حفظ العقل البشري من الضياع وتضييع الوقت في ما يعجز عن التوصل إليه بمفرده وخاصة في مسائل الغيب كالإلهيات والسمعيات.

4- الهيمنة المعرفية:

المعروف منهجياً في الأبحاث الجامعية المتخصصة أن يأخذ الباحث المعلومة من المصدر قبل المرجع؛ لأن المرجع هو كتاب قد أخذ صاحبه فيه عن المصدر، كما يراعى الأخذ من المصدر السابق زمنياً قبل اللاحق إلاّ أن ينفرد الأخير بما ليس في الأول، وكلما تحرى الباحث الموضع الأصلي للمعلومة المقتبسة كلما كان أدق وأقرب لمصدرها الأصلي، فيتحاشى بذلك الوقوع في أخطاء اقتباسها أو سوء نقلها وتحريفها في المراجع الأخرى التي اعتمدتها.

---

(1) ولعل فيزيائي العصر الشهير المُقْعَد ستيفن هوكنغ خير مثال على ذلك، أراد البحث عن نظرية رياضية شاملة للكون فما وجد سوى التسليم بعقل واحد كامل –حسب تعبيره– يدبر شؤون الوجود كله، سلم بالله الواحد الأحد، شاء ذلك أم أبى، رغم أنه كان قد نفى التسليم بأي فكرة ما ورائية (ميتافيزيقية) في البداية، انظر كتابه: تاريخ موجز للزّمن (من الانفجار الكبير إلى الثقوب السوداء)، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي.

أما بالنسبة للقرآن الكريم فهو المصدر المعرفي المهيمن على ما قبله وما بعده من كتب أو آراء ونظريات، كما أنه المهيمن على الكتب السماوية الأخرى التي قبله مع أنه خاتمها: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (المائدة:48). فكل ما يوافق نصوصه يرتقي لدرجة الصحة، وكل ما يخالفها ينزل إلى درجة الخطأ والبطلان، فهو المعيار المعرفي المهيمن، الذي يضمن لأي نشاط فكري الوجهة الصحيحة والسليمة.

القرآن الكريم.. هل هو كتاب متداخل المواضيع؟

اعتاد المؤلفون في مختلف العلوم على اتباع نمط واحد في التأليف، يتمثل في التسلسل المنهجي لمحتويات مؤلفاتهم، ومراعاة الوحدة الموضوعية لفصولها، حتى أن أي قارئ لها يمكن أن يحيط - بكل يسر- بالموضوع الواحد فيها من خلال قراءة الفصل الخاص به، أو على الأقل يمكن له أن يشعر بوجود نوع من الاستقلالية والانفصال حتى بين تلك الفصول المترابطة ارتباطاً وثيقاً، وهذه الاستقلالية والانفصال يمليهما المنهج العلمي، وكذا المنطق البشري في حد ذاته.

أما القرآن الكريم فإنه لا يخضع لهذه القاعدة المعهودة عند الذين أنزل إليهم وخاطبهم من الجنس البشري، حيث إنه «إذا عرض موضوعاً كثر ما يعرضه مجزأ القضايا، يعرض بعضها في سورة، ويعرض بعضها في سورة أخرى، ثم يعرض بعضاً آخر في سورة أخرى، وهكذا..»(1).

وهذه الظاهرة لفتت أنظار الكثير من الدارسين للقرآن: سواء من المسلمين؛ أو من المستشرقين الذين كانت بالنسبة لهم فرصة لوصف القرآن بأنه «مختلط الموضوعات، بلا رابطة»(2).

اهتم علماؤنا الأوائل بهذا التداخل الظاهري لمواضيع الآيات وأولوه جانباً

---

(1) محمد الزفزاف، التعريف بالقرآن والحديث، ط4 (الكويت: مكتبة الفلاح، 1984م) ص131-132؛ وانظر: موسى إبراهيم الإبراهيم، بحوث منهجية في علوم القرآن، ط2 (عمّان: دار عمار للنشر والتوزيع، 1996م) ص15.

(2) محمد قطب، دراسات قرآنية، ط5 (القاهرة: دار الشروق، 1988م)ص19.

من الاهتمام الكبير، وأسسوا (علم المناسبات) كعلم من علوم القرآن(1)، قصد تعليل ومعرفة مناسبة الآية السابقة للآية اللاحقة، ومناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، فاكتشفوا عقدًا منظوماً من اللآلئ والدرر للمعاني القرآنية المتوافقة والمتناسبة فيما بينها، عكس ما قد يبدو لأول وهلة أنه تداخل ظاهري لمواضيع الآيات.

اهتم الإمام البقاعي، رحمه الله، في تفسيره المميز (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) بتعليل تداخل مواضيع الآيات والسور بالبحث عن مدى ارتباط الآية من حيث المعنى بما قبلها وما بعدها، وقد وفق في ذلك إلى حد كبير، رغم أن منهجه كان قائماً على تتبع جزئيات المعاني عبر كامل المصحف الشريف.

مثال عن ذلك: قوله بعد تفسير سورة الإسراء وانتقاله لسورة الكهف للربط بينهما: «لما ختمت تلك (أي: سورة الإسراء) بأمر الرسول ﷺ، بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك، بُدِئَت هذه (أي: سورة الكهف)، بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال

(1) أفرد الإمام الزركشي، رحمه الله، في كتابه الشهير (البرهان في علوم القرآن) عنواناً خاصاً بعلم المناسبات، بل وجعله النوع الثاني الذي تنبغي معرفته من علوم القرآن بعد علم أسباب النزول، وله كلام طيب حول ذلك، كما له حديث جيد عن العلماء الذين اهتموا بهذا العلم الجليل رغم قلة من تعرض له لصعوبته ومشقة اكتشاف الروابط بين الآيات والسور وأسرار ترتيبها. انظر: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، د. ط. (بيروت: دار المعرفة، 1391هـ) 36/1. وأفرد الإمام السيوطي، رحمه الله، كتاباً خاصاً بعلم المناسبات عنوانه (أسرار ترتيب القرآن). وهناك من أقام تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم بناء على هذا العلم الجليل، مثل الإمام البقاعي، رحمه الله، في تفسيره المسمى (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وللإمام الفخر الرازي باع في ذلك، كما سيأتي بيانه على المتن.

التي منها البراءة عن كل نقص»[1].

وإذا عدنا إلى صاحب التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، نجد أن الإمام فخر الدين الرازي، رحمه الله، قد قفز قفزة نوعية من هذه الناحية، فهو لم يعمد إلى تفسير سبب تداخل مواضيع الآيات عن طريق تتبع المعاني الجزئية وربط الآية السابقة باللاحقة فحسب، بل أسس لذلك إطاراً منهجياً مغايراً تماماً، حيث انطلق من الكليات بدلاً من الجزئيات.

لقد توجه مباشرة إلى المحاور الكبرى للقرآن الكريم، التي تأسس عليها كلام الله، ومن ثم تقرر لديه أنه مَهْمَا تداخلت الآيات موضوعياً فهي مرتبطة بالمحاور التي تنتمي إليها من حيث المعنى (الموضوع) أو من حيث المغزى (المقصود) الذي ترمي إليه؛ وبذلك تمكن الإمام الرازي، رحمه الله، من إيجاد وسيلة لتعليل الاختلاف والتمازج بين مواضيع الآيات القرآنية.

وأكّد الفخر الرازي في أكثر من موضع في تفسيره على وجود أربعة محاور كبرى للقرآن الكريم؛ حيث قال: «وقد ذكرنا كثيراً أنّ مدار القرآن على المسائل الأربعة، وهي: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، والقضاء والقدر»[2]، وأن الله سبحانه وتعالى بالغ في تقريرها في كتابه العزيز[3].

وأشار، رحمه الله، إلى أنّه سيشرح تلك المحاور بالاستقصاء في

---

(1) البقاعي، أبو الحسن برهان الدين بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م) 115/9.

(2) فخر الدين الرازي محمد بن عمر، التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م) 179/20؛ وانظر: 173/13، 80/14، 65/15، 51/20، 109/26.

(3) انظر المصدر نفسه، 173/13.

القرآن[1]، وهذا ما فعله حقاً؛ حيث إنّه كان في كل تفسيره يحاول ربط معاني آيات القرآن بالمحاور الأربعة، بل ويعلل تناسب الآيات في ما بينها بضرورة امتزاج تلك المحاور؛ لأنها تترابط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً، ومن ذلك ما قاله في تفسيره للآيات (186- 187) من سورة الأعراف:

«(اعلم) أنّه تعالى لما تكلم في التوحيد والنبوّة والقضاء والقدر أتبعه بالكلام في المعاد، لِمَا بَيَّنَّا أنّ المطالب الكليّة في القرآن ليست إلاّ هذه الأربعة»[2].

ولعل الواحد منا يوجه نقداً بسيطاً لرأي الإمام الرازي حول المحاور الأربعة المذكورة؛ فيقول: إن القضاء والقدر هو مبحث من مباحث التوحيد (أو كما يسمى أيضاً الإلهيات)؛ فلماذا يجعله محوراً مستقلاً بمفرده، وخاصة أن المتتبع لآيات القضاء والقدر في القرآن يلاحظ أنها قليلة العدد مقارنة بما سواها؟

طبعاً لا ينبغي أن ننسى الظروف المحيطة بالفخر الرازي أثناء تأليفه لتفسيره، فقد كان يرد به على تفسير الإمام الزمخشري المعتزلي، رحمه الله، ولذلك تعمّد أن يُخصّص محوراً بأكمله لمسألة القضاء والقدر، وهو بذلك يرد على رأي الزمخشري في محاور القرآن نفسها، حيث إن هذا الأخير جعلها ثلاثة محاور هي:

1- الثناء على الله بما هو أهله (وفيه إشارة ضمنية واضحة إلى أصل العدل الإلهي وما يتبعها من مسائل القضاء والقدر).

(1) انظر المصدر نفسه، 145/1.

(2) المصدر السابق، 65/15.

2- التعبد بالأمر والنهي (ويقصد بذلك محور الأحكام الشرعية، غير أنه استخدم مصطلحات قريبة من مصطلحات المذهب الاعتزالي، حيث إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول مذهبهم أيضاً).

3- الوعد والوعيد (أي محور المعاد الأخروي كما عند الرازي، غير أن الاسم الذي استخدمه الزمخشري هنا مطابق أيضًا لأحد الأصول الخمسة لمذهب الاعتزال)(1).

رغم أن الإمام الرازي أكّد بصريح العبارة - وفي أكثر من موضع من تفسيره- أن مدار القرآن هو على المحاور الأربعة المذكورة؛ إلاّ أنّه أكّد في مواضع أخرى أيضاً على ثلاثة محاور فقط، وهي المحاور الثلاثة الأولى من الرّأي الأوّل: الإلهيات، النبوّات، المعاد، ولم يذكر المحور الرابع القضاء والقدر، وهذا في مثل قوله: «اعلم أنا ذكرنا في هذا الكتاب أنّ مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد»(2).

إنّ وجود آراء أخرى للإمام الرازي يقر فيها بوجود المحاور الثلاثة الأولى، ويُسْقِطُ فيها المحور الرابع، دليل على أن محور القضاء والقدر ليس معتبراً عنده بصورة أساسية، وهذا يرجّح ما سبق ذكره من أنّه لم يأت به إلاّ للرّد على المعتزلة. كما أن رأيه كان من الممكن أن يظل بعيداً عن مثل هذا النقد لو لم يكن له رأيه الثاني وفي الكتاب نفسه، مما يشعر بأن الإمام، رحمه الله، كان يدرك أحياناً وهو في غمرة التفاعل مع كتاب الله تعالى أن المحاور الكبرى للقرآن كانت الثلاثة الأولى فقط، التي أوردها في

(1) انظر الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط1 (بيروت: دار الفكر، د.ت، 1977م) 23/1.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، ط1 (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1981م) 76/7.

الرأي الثّاني.

- وهو الذي رجّحناه- وهي: التوحيد، النبوّات، المعاد؛ والتي تمثّل الفروع الثلاثة الكبرى للعقيدة.

ما يهمّنا في الأخير من سرد هذا كله هو التنبيه إلى أمر أساس؛ وهو أن كلا الإمامين لم يذكرْ محوراً مهماً من محاور القرآن المعروفة، وهو محور (القصص القرآني) الذي يشغل مساحة كبيرة في القرآن؛ ففيه أخبار الأنبياء وأقوامهم وأخبار الصالحين وكذا بعض من سبقنا من الأمم، وقصة خلق آدم، عليه السلام... وغيرها.

وهناك من الأئمة من لم يذكر محور القصص في رأيه حول المحاور الكبرى للقرآن الكريم، كالإمام الطبرسي، وابن العربي، وابن القيم، والحرّالي(1)... وغيرهم(2).

بينما نجد لمحور القصص القرآني ذكراً واسعاً في آراء العلماء المحدثين، سواء من خلال مَحْوَرتهم لأبواب المعاجم الموضوعية أو من خلال آرائهم الخاصة بهذا الجانب، كما هو الشأن بالنسبة لصاحب كتاب «المحاور الخمسة للقرآن الكريم» الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، والإمام الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد عبده... وغيرهم.

(1) الحرّالي: هو علي أبو الحسن بن أحمد بن حسن التجيبي الأندلسي الحرالي، وحرالة من قرى مرسية. مفسر ومتصوّف مالكي. برع في العقليات، وخاض في علم الحروف والأعداد، وزعم أنّه تمكن من استخراج وقت خروج الدّجال وطلوع الشمس من مغربها، بهذا العلم .يضرب المثل به في حلمه، كما تكلم بعض العلماء في عقيدته. توفي بحماة سنة 637هـ. من مؤلّفاته: تفسيره مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزّل، والإيمان التّام بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام، والإلماع بطرف من الانتفاع وهو كتاب في علم الحروف(انظر الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، 47/23؛ السيوطي، طبقات المفسّرين،ص76-77؛ حاجي خليفة، كشف الظّنون،158/1،215،1768/2).

(2) لمزيد من التفصيل حول آرائهم انظر نورة سعادنة، المحاور الكبرى للقرآن الكريم عند العلماء المسلمين، عرض ونقد، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.

قد أوجز هنا وأشير إلى أنه بعد البحث والتقصي حول ذلك يمكن ملاحظة أمر بيّن ومهم، وهو أن العلماء المحدثين قد مَحْوَرُوا آيات القرآن محورة موضوعية، أي: اهتموا بجمع آيات الموضوع الواحد من خلال القرآن الكريم، واستقصاء ما أمكنهم من موضوعات فيه، ولم تشغلهم كثيراً ظاهرة التداخل بين مواضيع الآيات، وخاصة أنه قد استقر في نفوسهم التسليم بأن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي يختلف عن طريقة البشر في التأليف، وبالتالي لا حاجة للبحث عن هذا الأمر؛ لأنه كتاب سماوي له منهجه الخاص به، والمهم عندهم هو الإلمام بمواضيعه المحورية الكبرى ودراستها لاستخراج ما أودع الله فيها من حكم وأسرار.

أما العلماء الأوائل فكان يشغلهم علم المناسبات، أي: التداخل الظاهري لمواضيع الآيات. ومن خلال البحث في آرائهم المختلفة، أفضى ذلك إلى نتيجة مهمة؛ وهي أن لهم اتجاهاً مختلفاً في محورة آي القرآن: إنهم يمحورون القرآن محورة مقاصدية، وليس محورة موضوعية، إنهم يتحدثون عن مقاصد القرآن العظمى وليس عن مواضيعه الكبرى.

فالقصص القرآني محور موضوعي مهم، لكنه ليس محوراً مقاصدياً؛ أي ليس هو المقصود بذاته من ذكره في القرآن وإنما هناك مقاصد أخرى أعظم من خلاله، وهذا ما تنبه العلماء الأوائل إليه؛ حيث قال الإمام الرازي عن محور القصص القرآني: «والمقصود من ذكر القصص إمّا تقرير دلائل التوحيد، وإمّا المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف»[1]، وبهذا يكون قد علّل لنا عدم

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، الصفحة نفسها.

اعتباره للقصص كمحور من محاور القرآن المقاصدية؛ وهو أنّ المقصود من هذا المحور الموضوعي هو: إمّا التّوحيد أو الإلزام بالأحكام الشّرعية.

فالإمام الرّازي أكّد هنا مسألة تعلّق محور موضوعي (كمحور القصص) بأكثر من محور مقاصدي، فالقصص القرآني – بحسب ما ذهب إليه- لا بدّ أن يمتزج بآيات التّوحيد حينما يكون مقصوده إثبات التّوحيد ،كما أنّه لابد أن تمتزج آياته بآيات الأحكام الشّرعية حينما يكون مقصوده الإلزام بها من خلال أخبار من حاد عن تلك الأحكام، ولم يمتثل لأوامر الله تعالى ونواهيه. ولذلك أكّد لنا ضرورة اختلاط هذه المحاور الثّلاثة: التّوحيد ، القصص، الأحكام ببعضها بعضاً في القرآن الكريم.

ويعتبر كتاب «جواهر القرآن» للإمام أبي حامد الغزّالي تجربة فريدة من نوعها في محورة القرآن بنوعيها؛ حيث سمى المحاور المقاصدية: السّوابق الأصول المهمة، وسمى المحاور الموضوعية: الرَّوادف والتوابع المُغْنِية المُتِمّة، واعتبر هذه الأخيرة تكملة وتوضيحاً للأولى(1). وتفرد حجة الإسلام بين العلماء القدامى بذكر محور الكونيات (آيات الآفاق) ضمن أفعال الله تعالى التي تتجلى في كل ما خلق حولنا، ولا يتسع المقام هنا لبسط رأي الإمام الغزّالي، الذي تأثر فيه بالصوفية، التي لجأ إليها كمذهب له في أواخر حياته العلمية.

خلاصة ما نصبو إليه من خلال هذه الأمثلة هو أن القرآن كريم كتاب

(1) انظر الغزالي (أبو حامد الطوسي)، جواهر القرآن، تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، ط3 (البليدة- الجزائر: دار قصر الكتاب، 1989م) ص23.

امتزجت موضوعاته خدمة لمقاصده العظمى التي نـزل من أجل بيانها وهداية الناس إليها، وبتعبير، أكثر دقة ومنهجية، فإن المحاور المقاصدية العظمى للقرآن هي التي تتحكم في المحاور الموضوعية الكبرى له، لذا يمكن القول: إنه يخضـع لمنهج مقاصـدي رسـالي وليس لمنهج التبويب المـوضـوعي المألوف عند البشر.

المحاور المقاصدية
والمحاور الموضوعية للقرآن

- أولاً: المحاور المقاصدية:

وتتمثل في الثوابت المصدرية للقرآن، واختلف العلماء في حصرها، غير أن المحور المقاصدي المشترك بينهم جميعاً هو محور التوحيد الذي يمثل المقصود الأعظم للقرآن الكريم، ثم يليه محور الآخرة (أو المعاد)، ومحور النبوات (ثبوت الوحي، وسماوية القرآن، ونبوة محمد ﷺ وبقية الرسل)، وهذه المحاور الثلاثة هي الأبواب الثلاثة للعقيدة الإسلامية، أما محور الأحكام الشرعية فرغم أنه من الثوابت القرآنية غير أن هناك من لا يذكره ضمن المحاور المقاصدية لسببين:

- أولهما: أن آيات الأحكام قليلة في القرآن الكريم ولا تتعدى خمسمائة آية(1)، من ضمن ما يربو عن ستة آلاف آية في القرآن بأكمله، فمجموع آيات الأحكام أقل من عُشْر القرآن، ولذلك ربما لم تُشَكِّل محوراً كبيراً في نظر بعضهم.

- وثانيهما: بالنسبة لبعض العلماء فإن المقصود من الأحكام الشرعية هو توحيد الألوهية بالامتثال للأوامر والنواهي، وتوحيد الألوهية، كما هو معروف، قسم من قسمي التوحيد، الذي يشمله ويشمل (توحيد الربوبية)، ولذلك فمحور الأحكام مدرج ضمن محور التوحيد.

وفي الحقيقة لا عبرة بالعدد لآيات الأحكام وكثرتها وإنما العبرة

---

(1) انظر الرازي (فخر الدين محمد بن عمر)، المحصول في علم الأصول، تحقيق د.طه جابر العلواني، ط.1(الرياض:منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ، 1400هـ) 33/6؛ ابن أمير حاج الحلبي (محمد بن محمد)، كتاب التقرير والتحبير، ط1 (بيروت: دار الفكر، 1996م) 389/3. ومن القائلين أيضاً: إن عدد آيات الأحكام خمسمائة الإمام أبو حامد الغزالي والإمام ابن العربي وغيرهما.

بأهميتها في حياة الإنسان وإحاطتها بكل جوانب العبادات، والمعاملات: مالية (من عقود ومواثيق وزكاة وإرث...) واجتماعية (من زواج وطلاق وآداب...) وسياسية (من أحكام الولاية والإمامة، والمعاهدات والمواثيق، والحروب والأسرى وأهل الذمة...) وأخلاقية (من صبر وصدق وعزم واحتساب وإحسان وبر وزهد...)، مع أن باب الفضائل والأخلاق باب واسع يمكن أن تستقل أحكامه في محور مقاصدي خاص بها؛ لأنها من الثوابت التي لا تتغير بتجدد الأزمنة والعصور، بل هي روح الحضارة نفسها بعد العقيدة، إن جاز التعبير.

- ثانياً: المحاور الموضوعية:

وتتمثل في:

1- محور القصص (أخبار الرسل مع أوليائهم وأعدائهم، وأخبار الأمم السابقة، والصالحين من العباد...).

2- ومحور آيات الآفاق (الكونيات، سواء ما يسمى بعلم الفلك من أجرام سماوية مختلفة، أو من عالم الحيوان، أو عالم النبات، أو حتى أحوال الكوكب الأم من جبال ووديان ورياح وأمطار ورعود وطقوس جوية... وهذا محور موضوعي كبير وعظيم الشأن في القرآن الكريم لما يقدمه من خدمة للمحاور المقاصدية وخاصة محوري التوحيد والمعاد الآخرة).

3- ومحور آيات الأنفس (عالم الإنسان وحقيقته، من نشأته إلى اكتماله، وطبيعته النفسية المتقلبة، ومواطن القوة والضعف فيه، وجاهزيته لوظيفة الاستخلاف في الأرض، وحمله للأمانة دون ما سواه من المخلوقات، وأدواؤه النفسية وأدويتها).

4- محور الاجتماع البشري (وفيه أصناف البشر الثلاثة وأوصافهم: المؤمنون، والكفار، والمنافقون، والعلاقات بينهم، والسنن الاجتماعية التي

تحكمهم، من تدافع وغيرها).

5- محور أهل الكتاب (من نصارى ويهود وعقائدهم، ومحاجتهم وإقامة الأدلة عليهم، وكشف مواقفهم من الدعوة الخالدة، ودعوتهم للإيمان بالرسالة الخاتمة... وغير ذلك).

6- محور قيام القرى (الحضارات) وهلاكها وأسباب ذلك.

7- محور الدعوة إلى الله (وهو محور مهم تتمحور آياته حول أسس الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونماذج الدعوة الفذة من رسل الله، عليهم السلام، ودعوة نبينا ﷺ للكفار وأهل الكتاب، والأسس النفسية اللازمة للداعية من صبر كصبر أولي العزم من الرسل) وهو أيضاً محور موضوعي يهدف إلى تحقيق المحاور المقاصدية العظمى.

ولا يمكن أبداً الجزم بعدد محدود من المحاور الموضوعية؛ فهي متجددة ومتفرعة بحسب حاجة كل عصر إليها، وبقدر تطور العلوم المختلفة التي تميط اللثام عنها، وقد أصاب صاحب كتاب (المحاور الخمسة في القرآن الكريم) الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، حينما تراجع عن حصره لعدد مواضيع القرآن في خمس محاور؛ فعدّد غيرها في كتاب آخر له (كيف نتعامل مع القرآن)؛ فأضاف محور النفس البشرية، ومحور الأخلاق، ومحور الإيمان، ومحور الفطرة الإنسانية(1).

ومما تجدر الإشارة إليه دائما هو أن دراسة المحاور الموضوعية للقرآن لابد أن تتم في إطار النظر للمحاور المقاصدية التي ترمي إليها، حتى لا تُصَادرَ فائدتها وغايتها التي تسمو في الأخير إلى إقرار الثوابت القرآنية العظمى

(1) انظر محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، في مدارسة مع أ. عمر عبيد حسنه، د.ط (المنصورة: دار الانتفاضة للنشر والتوزيع؛ الجزائر: دار الوفاء، د.ت) ص43، 61، 85.

(المحاور المقاصدية)، ومن هنا تتحقق أسلمة العلوم والمناهج المتعلقة بها.

- القرآن والتنمية البشرية (تطوير الذات):

بعد بلوغ عالمنا المعاصر ذروة الفراغ الروحي وقمة الانغماس المادي؛ ظهرت مسميات حديثة كالطب البديل والدورات التكوينية في مجال التنمية البشرية، وذلك كحلول بديلة لاستدراك الجانب الطبيعي وكذا الروحي للحضارة الغربية؛ وطبعاً المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب - على حد تعبير العلامة ابن خلدون، رحمه الله- نجد تأثراً كبيراً بذلك في الأوساط العامة وكذا الفكرية منها؛ فظهرت مؤلفات عديدة حول ذلك، منها ما هو ناقل للفكرة الغربية، ومنها ما هو مؤسس لأفكار إسلامية مثيلة أو بديلة منطلقها الكتاب والسنة الشريفة.

جل من يسمع آيات الله تتلى عليه يشعر بسكينة وهدوء نفسي كبير، حتى وإن كان أعجمياً لا يفقه شيئاً من لغة الضاد؛ يجد لترانيم مخارج الحروف القرآنية هدوءاً روحياً عجيباً. أما إذا كان عربياً فاهماً لمعانيه وخاشعاً متدبراً فَشَتَّان بين هذا وذاك: القرآن يأخذ بيده ويقود عقله وروحه إلى مفاهيم أخرى، ويبعث في نفسه هدوءاً وحلاوة تعجز أكبر المدارس التدريبية في التركيز وتطوير الذات عن الإتيان بمثلها.

وهنا نعود بالحديث إلى المحاور الموضوعية وتداخلها في القرآن الكريم؛ فالقرآن يخاطب الإنسان ويتوجه إليه وفق نسق مرتب من المعاني والموضوعات، هذا النسق الذي يُسمى «ترتيب التلاوة» يختلف عن نسق نزوله الذي يسمى «ترتيب النزول»، فقد نزل القرآن منجمًا (مفرقاً) في مدة ثلاث وعشرين سنة تقريباً، ولم تنزل السور كاملة ولا مرتبة كما هي الآن في

المصحف الشريف، بل الرسول ﷺ هو من أمر كتّاب الوحي بترتيبها على هذا النحو الذي وصلت به إلينا؛ أما في عهده، عليه الصلاة والسلام، كانت تنزل بحسب الوقائع والأحداث؛ لأنهم كانوا في مرحلة التأسيس والبناء لحضارة كبرى أعلن التاريخ عن ميلادها ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين.

فلماذا يا ترى لم يبق القرآن مرتباً كما نزل على الرسول ﷺ (ترتيب النزول)؟ لماذا أعاد، عليه الصلاة والسلام، ترتيبه ترتيباً وقفياً أملاه عليه الوحي من جديد (ترتيب التلاوة)؟

لقد كانت أغلب آيات العهد المكي (مرحلة التأسيس) تتحدث عن العقيدة والقصص القرآني، أما في العهد المدني (مرحلة البناء) فكانت أغلب الآيات تتحدث عن التشريع ومجتمع المدينة من أهل الكتاب وكذا فئة المنافقين، التي ظهرت كالوباء في المجتمع الإسلامي الحديث النشأة.. لقد اكتمل بناء الدولة الإسلامية المصغرة في عهده ﷺ، وكانت مثل النواة للحضارة العظيمة، التي ستنمو منها وتمتد ظلالها الوارفة إلى أصقاع الدنيا، لم تعد هناك حاجة لترتيب النزول، الذي رافق أحداث ووقائع البداية... إذن.. فهل من أمر ما في الترتيب الأخير ترتيب التلاوة؟ هل هو الترتيب الكفيل بحفظ بقاء الأمة إلى قيام الساعة فكراً ومنهجاً؟ هل من منهج معين فيه لم يكتشف بعد؟

القرآن لا تنقضي عجائبه... وقد رافق عصر الاكتشافات العلمية من الذرة وما دونها (العالم الميكروكوزمي)(1) إلى أقصى المفاهيم عن أقطار

---

(1) العالَم الميكروكوزمي (microcosme): يعني العالم المصغر (انظر قاموس الكنز (فرنسي عربي) جروان السابق،ط.3(بيروت: دار السابق، 1985م) ص624– مادة microcosme) هو عكس العالَم الماكركوزمي، فهو العالَم المجهري الدقيق من: خلايا، وذرات، وبكتيريا، وفايروسات ومادونها من مكونات متناهية في الصغر

الكون من الأرض إلى السماوات العلا (العالم الماكروكوزمي)[1] وهذا ما عرف بالتفسير العلمي لآيات الكونيات (أو الإعجاز العلمي).

إذا تأملنا أولى صفحات المصحف الشريف نجد أن الحديث في سورة الفاتحة بعد الحمد وصفات الله واليوم الآخر خاتمة عن ثلاث طوائف من البشر: المنعم عليهم، المغضوب عليهم، الضّالين؛ ثم في سورة البقرة التي تأتي بعدها مباشرة، يتواصل الحديث فيها عن ثلاث طوائف مقابلة للتي ذكرت في الفاتحة: المؤمنين، الكفار، المنافقين؛ ثم يتحول الحديث إلى مخاطبة كافة الناس ودعوتهم للإيمان وتذكيرهم بنعم الله عليهم ودلائل قدرته في كونه... ثم تذكير بالآخرة والمعاد، ثم تأتي قصة الملأ الأعلى وخلق آدم، عليه السلام.. ثم بعدها أخبار بني إسرائيل أول الأمم المتلقية لأول كتب السماء[*].

يبدو الحديث متسلسلاً، ليست هذه أول ما نزل من الآيات، لكنها أول ما يتلى في المصحف، ومع ذلك جاءت منتظمة كدرر العقد النفيس...

القارئ لها بإمعان لمرات عديدة يشعر أن هناك صياغة مميزة ومقصودة - إن جاز التعبير- لإعادة تشكيل ذهن القارئ وفق مصدرية قرآنية، لا ريب فيها ولا جدال، للحقائق الإيمانية والاجتماعية والتاريخية معاً: التوحيد واليوم

كالإلكترونات، والبوزيترونات، والنيقاترونات، ومادونها من جسيمات طاقوية كالكوانتوم ومادونها مما لم يكتشف بعد، ويجزم العلماء بوجود ما هو أدنى وأصغر من ذلك، ولم تسعفهم أجهزتهم من اكتشافه رغم صحته نظريا من الناحية الرياضية والفيزيائية الموجية، وأصغر وحدة قياس فيه هي الأنغستروم. أبرز النظريات التي تتلاءم معه هي الكوانتية. وما بين العالم الماكروكوزمي والعالم الميكروكوزمي يوجد عالمنا العادي والذي تتلاءم مع قوانينه الفيزياء الكلاسيكية.

(1) العالَم الماكروكوزمي (macrocosme): وهو الكون الواسع المتناهي في الكبر (انظر قاموس الكنز، السابق،576، مادة macrocosme)، من كواكب ونجوم ومجرات وسدم وأجرام سماوية، وما وراءها من عوالم لم يتمكن الإنسان من اكتشافها بسبب عجز التكنولوجيا التي توصل إليها؛ وهو من الكبر حتى أصبحت المسافات فيه تقاس بملايين السنين الضوئية ، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعة ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، وأبرز نظرية تتلاءم مع العالم الماكروكوزمي هي نظرية النسبية العامة لأينشتاين.

(*) نقول أول الكتب السماوية باستثناء صحف إبراهيم، عليه السلام، المذكورة في القرآن الكريم، والتي لم يرد أي خبر عنه أنه توجه بها إلى أمة من الأمم كما هو الشأن بالنسبة للكتب السماوية الأخرى، والله أعلم.

الآخر، ثم أصناف الناس، ثم قصة «أبو البشر»، ثم قصة أعتى أمم الأرض مع أول كتاب سماوي..

لو وسعنا الجهد والوقت وواصلنا القراءة لكامل كتاب الله تعالى متتبعين المواضيع القرآنية وترتيبها ومدى ارتباطها بالمحاور المقاصدية الكبرى، مراعين في ذلك أسلمة المستجدات الفكرية الحديثة كعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ... والأهم من ذلك التركيز على الجوانب التي تتغير في القارئ لكتاب الله خاصة الذهنية منها والنفسية والروحية؛ لوجدنا أن القرآن هو الكتاب الأوحد الذي يحمل بين طياته إمكان معاودة النهوض الحضاري للأمة الإسلامية بعد أفول طويل.

فالقرآن يبني للفرد إيماناً واضحاً، ويجيبه عن أعظم تساؤلات البشر الوجودية.. يجيبه أن له وللكون أجمع رباً واحداً لا معبود سواه.. وأنه غفور رحيم، شديد العقاب.. وأن هناك يوماً آخر فيه معاد بعد الممات.. وأن هناك خلوداً إما في نعيم الجنة أو جحيم النار.. وأن هناك شرعاً واضحاً من الله يشمل العبادات والمعاملات والأخلاق والعلاقات الاجتماعية يكفل له السير السليم في الحياة الدنيا.. وقد أورد له من أخبار من سبقنا ما يكفيه للاتعاظ.. ثم لم يحجر على عقله بل دعاه للتثبت واكتشاف تلك الحقائق بنفسه من خلال السير في الأرض والنظر في أحوال ما خلق الله من أنفس وآفاق.. كل هذا وفق نسق مرتب يعالج الإنسان جزءاً جزءاً، متنقلاً بين مكوناته، التي جُبِل عليها: تارة بالأدلة العقلية، وتارة بالترهيب والترغيب النفسي، وتارة بالراحة النفسية بالتجول بين النعم الكثيرة في الكون، وتارة يأمره بأن لا يكتفي بالجلوس والقراءة فقط لكتاب الله بل يقوم ليسعى للعبادات التي من أعظمهما مهمة الاستخلاف، التي من أجلها خلق آدم، عليه السلام..

يخاطب القرآن الكريم الإنسان ويمنحه الثقة في نفسه من خلال كل الجوانب المذكورة؛ فيرقى لأقصى درجات العطاء؛ حيث يصبح حارساً من حراس الأمة لبقاء الأمة نفسها بكامل خَيْرِيَّتِهَا، وذلك بالذود عن مبادئها بين أفراد مجتمعها؛ يصبح كل المجتمع يؤدي مهمة الحسبة والرعاية لبقاء الأمة، وهذا ما وصفه القرآن الكريم بأبلغ الأوصاف؛ حيث قال عز من قائل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾ (آل عمران:110)، وهذه أعلى الدرجات التي يعجز عن بلوغها أرقى فنون تطوير الذات والتنمية البشرية.

إن للقرآن منهجاً إصلاحياً ينطلق من الإنسان، فرداً ثم أسرةً، ومن ثم يتدرج إلى المجتمع فالدولة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:214)؛ كما يحرص على تصحيح العلاقات الاجتماعية (الفردية والأسرية والعامة)، وهذه بداية تصحيح المسار؛ فهو ليس كتاباً نخبوياً لا يقرؤه إلا الخاصة من العلماء فحسب؛ ولم يتوجه إلى فئة معينة دون غيرها، إنه الكتاب الشامل المفتوح لكل أفراد الأمة، من أدناهم إلى أسماهم، هو الدستور، الذي تفردت به بين الأمم.